مجلة الآداب، م٢٦ ، ع٢ ، ص ص ١٩٩-٢١٥ ، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

سوسيولوجيا التغير الاجتماعي في الفكر الخلدوني: دراسة تحليلية

علاء زهير الرواشدة

أستاذ مشارك ورئيس قسم العلوم الاجتماعية، جامعة البلقاء التطبيقية، جرش، الأردن

(قدم للنشر في ١٤٣٤/٦/١٩هـ، وقبل للنشر في ٨/٢ /١٤٣٤هـ)

الكلمات المفتاحية: التغير، التغير الاجتماعي، الدولة، المنهج.

ملخص البحث : تأتي هذه الدراسة الاستقرائية التحليلية بهدف التعرف على مفهوم التغير الاجتماعي ونظرية الدولة كما ورد في مقدمة ابن خلدون، إضافة للتعرف على مرتكزات التغير ودعاماته والقوانين التي تحكمه في الحياة الاجتماعية و السياسية، من خلال منهج استقرائي متعمق للفصول الخاصة بالتغير في مقدمة ابن خلدون، و لأهم المراجع التي تحدثت عن موضوع التغير بشكل مباشر. وبعد العرض والمناقشة والتحليل خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج حول التغير والدولة.

مقدمة:

يعتبر التغير مرحلة حتمية في تطور المجتمع، تكمن أسبابها في التناقضات التي يقوم عليها البناء الاجتماعي وبالذات التصادم الحاصل بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، والتنافر بين الطبقات و"قانون الثورة الاجتماعية هو القانون الأساسي للانتقال من مرحلة اجتماعية اقتصادية إلى أخرى ".

(أبو نائل، ١٩٩٤).

وقد اتفق العديد من العلماء والمفكرون – تيلي، تونبي، ماركس، باريتو، فوكاياما، فيبر، سبنسر..- على أن هناك تغير سوف يطرأ أكان على مستوى الحكام أو على مستوى المجتمع ككل. وهناك من حدد الأسباب التي تدعو إلى حدوث التغيرات و كانت تركز على العوامل الاقتصادية و نمط الإنتاج و صراع الطبقات بينما ركز البعض الآخر على إدخال العوامل النفسية من

الإحباط، والسخط والحرمان النفسي كأسباب تدفع الجماهير إلى إحداث التغيير.

وهناك من أشار إلى أن الأنساق، والقيم، والاختلال في توازن المجتمع ومؤسساته بما فيها المؤسسة السياسية هو من أسباب وقوع التغير. كما نظر الآخرون إلى الديناميكية للجماعات المتنافسة باتجاه السلطة وسيطر عليها من منظور الصراع السياسي وضعف السلطة المركزية ومراكز القوة وتحالفاتها والمسألة التعبوية.(جمعة، ١٩٩١).

لذلك نرى و بكل الحالات أن هناك جماعة أو قوة متأهبة لإحداث تغيير في المجتمع و غالبا ما يكون بالحروب، والاستيلاء على السلطة و هي عند الماركسية الطبقة العاملة المستغلة، و في النظريات النفسية مجموعة محبطة ترتبط بالحرمان أو ذات التوقعات، أو الطبقات الوسطى، وفي النظريات السياسية هي جماعة تحالف سياسية. و بالعودة إلى تيلي فنجده حدد شروط للوضع التغييري بما يلي: (الفالح، ١٩٩٦: ص١٧٣).

١. توافر القوى المنافسة و ظهورها كبديلة للسلطة.

٢. درجة و مستو ى الالتزام و الدعم للمطالب.

٣. تشكل التحالفات بين القوة المتنافسة.

٤. عجز أو عدم رغبة الحكومة في مواجهة تلك القوى.

و بذلك نكون قد استعرضنا بشكل سريع لبعض المقولات النظرية التي تناولت فكرة التغير تمهيدا لعرض فلسفة ابن خلدون في التغير الاجتماعي من خلال استقراء مقدمته.

وعليه تم الاعتماد الأساسي لهذا البحث على المنهج الاستقرائي لمقدمة ابن خلدون وبالذات الفصول الخاصة بنظرية الدولة، والتغير الاجتماعي مثل: فصل " انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة " ومنها فصل " انقلاب الخلافة إلى الملك " وفصل " طروق الخلل إلى الدولة " وفصل " خراب الأمصار ".

مشكلة الدراسة:

يعتبر التغير الاجتماعي ظاهرة اجتماعية، وأي نظرة للمجتمع تدل على أنه في حالة تغيير مستمر، فالتغير صفة ملازمة منذ القدم حتى اليوم، فهو صفة أساسية للمجتمعات على اختلافها رعوية زراعية نامية أم متقدمة.

وقد تنبه المفكرون منذ القدم إلى ظاهرة التغير، واعتبرها البعض حقيقة الوجود وتعرضوا أيضا إلى تأثير المتغير ببعضها البعض وصدى هذه التغيرات في الجوانب الأخرى من الحياة الاجتماعية.

ويعتبر العلامة ابن خلدون من أوائل هؤلاء المفكرين الذين بحثوا في موضوع التغير الاجتماعي وقوانينه وهو صاحب نظرية تحليلية عميقة في هذا المجال. حيث تم تجميع آراء ابن خلدون من فصول عدة في المقدمة حول موضوع التغير حيث سيتم التعرف على قوانين التغير الاجتماعي ومرتكزاته، ونشوء الدولة وانهيارها مع محاولة التنبؤ بمستقبل الدولة في ضوء الطرح الخلدوني.

أسئلة الدراسة:

- كيف يحدث التغير الاجتماعي وما دعاماته، ومرتكزاته في فكر ابن خلدون.؟
- ما أسباب نشوء الدولة وانحلالها من منظور ابن خلدون.؟

- ما مستقبل الدولة في الفكر الخلدوني ؟

أهداف الدراسة :

- معرفة فلسفة التغير الاجتماعي عند ابن خلدون، ومرتكزات منهجه التغييري.
- معرفة أهم دعامات التغير الاجتماعي في الفكر الخلدوني.
- معرفة أسباب نشوء الدولة وانحلالها من منظور ابن خلدون.
- معرفة مستقبل الدولة في الفكر الخلدوني.

أهمية الدراسة :

إن التغير كان المحور الأساسي الذي تدور حوله أبحاث ابن خلدون ونظرياته لذلك تكمن أهمية هذا البحث في :

١. محاولة التعرف على مفهوم التغير ومراحله والأسس التي تقوم عليه نظريته في التغير من خلال استقراء فصول مقدمة ابن خلدون ذات العلاقة.

٢. كما تكمن أهمية الدراسة في التعرف ومحاولة تفسير وتوضيح التغيرات الاجتماعية التي تحدث عنها ابن خلدون من خلال النظريات والدراسات التي قدمها.

٣. كما تبين التغير الاجتماعي الذي تحدّث عنه ابن خلدون من خلال حديثه عن عوامل نشوء الدولة وأسباب انحلالها وتدهورها.

مفاهيم الدراسة : (التغير، التغير الاجتماعي)

- التغير الاجتماعي

يعني التغير بشكل عام الاختلاف بين حالة جديدة وأخرى قديمة وحين تضاف كلمة اجتماعي تعني ما يتعلق بالمجتمع فيصبح التغير الاجتماعي: التغير الذي يحدث داخل المجتمع أو هو التحول الذي يطرأ على البناء الاجتماعي خلال فترة من الزمن.

ويشير عاطف غيث إلى أن التغير الاجتماعي هو: " التغيرات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي أي في بناء المجتمع ووظائف هذا البناء المتعددة و المختلفة".

ويرى أن التغيرات اجتماعية تأتي على عدة أشكال :

١. التغير في القيم الاجتماعية: التي تؤثر بطريقة مباشرة في مضمون الأدوار الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي.

٢. التغير في النظام الاجتماعي: أي في البناءات المحددة مثل صور التنظيم ومضمون الأدوار أي في المراكز والأدوار الاجتماعية كالانتقال من نظام تعدد الزوجات إلى وحدانية الزوج والزوجة.

٣. التغير في مراكز الأشخاص: ويحدث ذلك بحكم تقدم في السن أو نتيجة الموت، فهناك أهمية للأشخاص الذين يشغلون مراكز ؛ لأنهم بحكم مركزهم يستطيعون التأثير على مجريات الأحداث الاجتماعية(غيث، ١٩٦٦).

ويمكن القول أن التغير الاجتماعي هو: كل تغيير يطرأ على البناء الاجتماعي في الوظائف والقيم والأدوار الاجتماعية خلال فترة محدودة من الزمن، وقد يكون هذا التغير إيجابيا أي تقدما وقد يكون سلبيا أي تخلفا ليس هناك من اتجاه محدد التغير(الدقس، ١٩٨٧).

- التغير الاجتماعي وقوانينه في فكر ابن خلدون

من أهم الخواص التي تمتاز بها ظواهر المجتمع الإنساني أنها لا تجمد على حال واحدة بل تختلف أوضاعها باختلاف المجتمعات والأمم والشعوب وتختلف

في المجتمع الواحد باختلاف العصور، فمن المستحيل أن نجد مجتمعين يتفقان تمام الاتفاق في نظام اجتماعي ما وفي طرق تطبيقيه كما أنه من المستحيل أن نجد نظاما اجتماعيا قد ظل على حال واحدة في مجتمع ما في مختلف مراحل حياته.

تصدق هذه الحقيقة على سائر أنواع الظواهر الاجتماعية حتى ما يتعلق منها بشؤون الأخلاق ومقاييس الخير والشر، والفضيلة فما يكون خير في مجتمع قد يكون شر في مجتمع آخر،وما تعده أمه فضيلة تعده أخرى رذيلة،وما يراه الشعب مباحا يراه شعب غير محظورا،وكثيرا ما يختلف الحكم من الوجهة الخلقية على الشيء الواحد في أمه ما باختلاف عصورها.

وهذا ما أشار إليه ابن خلدون وجعله أساس بحوثه في علم الاجتماع وقرره في أوضح عبارة، إذ يقول " ومن الخلط الخفي الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الإعصار ومرور الأيام... وذلك لأن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام و الازمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الأفاق والأقطار والأزمنة والدول "(ابن خلدون، ١٩٩٩).

حيث يبين ابن خلدون أن ظواهر الاجتماع لا تسير مصادفة إنما تخضع لقوانين اجتماعية، وينظر ابن خلدون إلى المجتمع الإنساني نظرة تحليلية ويحاول أن يتتبع المجتمع بالدراسة والتحليل من نشأته حتى فساده وتردده بين الضعف والقوة، والنهوض والسقوط، ويستقصي من خلال ذلك أحوال المجتمع وعناصر تكونه وتنظيمه من الفرد والجماعة إلى السلطان والدولة وما تقتضيه سلامة المجتمع وما يؤذن بفساده وانحلاله.

ويرى أن التاريخ البشري يسير وفق خطة معينة فحوادثه مرتبطة بعضها البعض وأن المجتمع البشري شأنه شأن الفرد الذي يمر بمراحل منذ ولادته وحتى وفاته، وكذلك يحدث للدول، وأن مسيرة المجتمع تغيرية دائرية تبدأ وتنتهي في النقطة التي كانت قد بدأت منها وأن هذه الظاهرة (دورة المجتمع) مستقلة عن الإرادة الإنسانية وقد أسهب ابن خلدون في تحديد أسباب التعاقب المنظم لدورة الظواهر العمرانية (الاجتماعية)، ويرى أن النظم والظواهر العمرانية تتغير في أثناء تطورها (الدقس، ١٩٨٧).

وبهذه الخاصة يمتاز موضوع علم الاجتماع عن العلوم الأخرى فالعلوم الرياضية والطبيعية تعالج ظواهر مستقرة، أما علم الاجتماع فيعالج ظواهر متغيرة كما أن عالم الاجتماع لا يقتصر بحثه على وصف الظواهر الاجتماعية وعرض ما يعتريها من تغير، بل البحث عن العوامل والأسباب التي تؤدي إلى تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور. ويكشف عن القوانين والقواعد التي يخضع لها هذا التطور وهذا الاختلاف ولذلك يجب أن يتخذ الحيطة والحذر في قياس الغابر على الحاضر ذلك إن المبالغة في هذا القياس والغفلة عن طبيعة الظواهر الاجتماعية وتطورها وعدم ثباتها على حالة واحدة، كل ذلك يوقع الباحث في الزلل ويحيد به عن قصد السبيل(زين العابدين،٢٠٠١) وهذا هو ما عني ابن خلدون أيما عناية بتوجيه أنظار الباحثين إليه إذ يقول:" والقياس والمحاكاة للإنسان طبيعة معروفة ، ومن

الغلط غير مأمونة ، تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتموج به عن مرامه ، فربما سمع السامع كثيرا عن أخبار الماضين، ولا يفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها ، فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهدوا، وقد يكون الفرق بينهما كبيرا فيقع في مهواة الغلط"(ابن خلدون، ٢١٦ : ١٩٩٩).

إذن نجد أن أنظمة ابن خلدون عن الطبيعة تنطوي على عناصر ديالكيتكية مشابهة لتلك التي انطوت عليها نظريات الفلاسفة عند اليونان القدماء التي ترى في الكون لوحة من التشابك والتفاعل والحركة لا يبقى فيها شيء على حاله وإنما كل شيء عليها يتحرك ويتطور (الخشاب، ١٩٧٠).

ولا يكتفي ابن خلدون بذكر التطور التدريجي للمجتمع من أحوال العالم والأمم، فهي لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر بل تختلف على الأيام وتنتقل من حال إلى حال بل يحاول تعليل هذا التطور أو التغير قائلا : " والسبب في تبدل الأحوال والعوائد ، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه ، كما يقال في الأمثال الحكيمة : الناس على دين الملك و أهل الملك والسلطان ، إذا استولوا على الدولة الأمر ، فلا بد أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم ويأخذون الكثير منها ولا يغفلون عوائد جيلهم مع ذلك ، فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول فإذا جاءت دولة أخرى بعدهم وخرجت من عوائدهم وعوائدها خالفت أيضا بعض الشيء وكانت الأولى أشد مخالفة ، ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي إلى المباينة بالجملة "(ابن خلدون، ١٩٩٩ : ٦١٤).

وهذه العبارات تدل دلالة صريحة على أن ابن خلدون قد فهم التطور التدريجي في الحياة الاجتماعية فهما واضحا.

ثم يعود ابن خلدون إلى هذا المبدأ في عدة فصول ويطبقه على عدة أنواع من الحادثات الاجتماعية والتاريخية ، فيخصص فصلا كاملا لشرح أطوار الدولة واختلاف أحوال أهلها باختلاف الأطوار. كما يشرح آثار التطور التدريجي في فصول عديدة مثل فصل " انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة " ومنها فصل " انقلاب الخلافة إلى الملك " وفصل " طروق الخلل إلى الدولة " وفصل " خراب الأمصار " ويلاحظ أن الأمور الناتجة من طور من الأطوار لا تزول تماما بمجرد زوال ذلك الطور بل تترك بعض الآثار بعد ذلك أيضا ويستشهد بذلك بالحديث عن الأندلس وعن أحوال تونس(الحصري، ١٩٦١).

ويلاحظ أن أحوال الأمم تتبدل أحيانا تبدلا كليا على الرغم من التدريج الذي ذكرناه آنفا، ويعبر عن هذا التبدل الكلي بقوله : " إذا تبدلت الأحوال جملة ، فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره كأنه خلق جديد ونشأه مستأنفة، وعالم محدث"(ابن خلدون، ٢١١ : ١٩٩٩).

إذن يلاحظ ابن خلدون أن أحوال الأمم والأجيال لا يقع فيها انتقال كثير ولا تغير كبير في بعض العهود، ولكن في عهود أخرى تنقلب تلك الأحوال انقلابا كليا وتتبدل بالجملة.

ومن ناحية أخرى يرد ابن خلدون تطور الاجتماع البشري إلى أساس اقتصادي فالمجتمعات تدرجت من

البساطة إلى التعقيد حسب الطريقة التي كانت تستغل بها ثورات البيئة من البداوة إلى الرعي إلى الصناعة.

وقد أولى ابن خلدون الناحية التطورية للمجتمع عناية كبيرة والعوامل التي تؤثر وقد توصل من دراسته للمجتمع إلى قانونه في التطور الاجتماعي قانون الأطوار الثلاثة – الأجيال الثلاثة وفيه يتجلى بوضوح ماهية التغير الاجتماعي عند ابن خلدون وهذه الأجيال هي:

_ طور النشأة والتكوين.

_ طور النضج والاكتمال.

_ طور الهرم والشيخوخة. (خمش، ١٩٩٨).

- مرتكزات المنهج التغييري في الفكر الخلدوني:

يقرر ابن خلدون بأن دراسة ظواهر الاجتماع على هذا النحو الذي أتى به علم غير مسبوق، بمنهج غير مطروق من قبل، وأن ما توصل إليه يمثل ثمرة يانعة لبحث وتنقيب طويل في جوهر الظواهر الاجتماعية حيث يؤكد في هذا الصدد: "واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة، أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص". ويقوم منهج ابن خلدون التغييري على المرتكزات التالية: (شرف، ٢٠٠٩).

١- الاستبصار الإيماني:

يرى ابن خلدون أن الملك مسؤولية تقع على عاتق من يتصدى للحكم، ويسعى لإسعاد الرعية، بنشر العدل والإنصاف ونبذ الظلم والإجحاف، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا كان متشبعا بروح إيمانية قوية يُبصر من خلالها نور الحق ويسعى بما أوتي من قوة وسلطان لإشاعته بين الناس."فإذا كان السلطان وجب أن يكون معه ويصاحبه الشرع ليكون عليه عينا ويلجم نوازعه التي تغريه بالشر وتمنعه من العدوان وتحول دون صيرورته سبعا ضاريا يستطيب الكل من ولي أمره"(مبارك، ٢٠٠٤: ٢٢٠). فالماسك بالسلطة يجب أن يكون متشبعا بروح إيمانية قوية تسمو به إلى سياسة الرعية بالعدل، ودفع الظلم عنها، ولذلك نجد ويؤكد ابن خلدون أن السلطة السياسية تعد محورا أساسي في التغيير الاجتماعي، فبإمكانها بما تحمله من سمات شخصية وإمكانيات مادية ومعنوية أن تدفع عجلة التغيير، والقضاء على الركود في المجتمع بتهيئة أفراد المجتمع نفسيا لقبول التغيير، والإسهام في إنجاحه وتفعيله في كل مجالات الحياة، ويقرر ابن خلدون بهذا الصدد أن: السبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه، ومع الإقرار بأهمية دور القائد في تحفيز أتباعه على التغيير، إلا أن اعتبار ذلك وحده كافيا أمر تعترضه الكثير من الصعوبات، فالكثير من القادة المتحمسين حاولوا أن ينشروا ثقافة الوعي بالتغيير في الأنفس إلا أن جهودهم تعرضت لموجات عاتية من الصد، وأُرغموا على التراجع عن برامجهم التغييرية؛ لأنهم لم يجدوا الأرض المواتية لزراعة أفكاره التنويرية، أو لم يفلحوا في إقناع المجتمع باحتضانها وتأمين الحياة لها، وهكذا نجد ابن خلدون في غير مناسبة يستدرك آراءه التي أطلقها بشأن قدرة السلطان النافذة في التمكين لعملية التغيير، إذ يعود ليقرر في موضع آخر أن هذه الأحوال والعوائد هي المسئولة عن تبدل الناس منطلقات وثوابت نظر وتفكير..فيكون السلطان صدى لها لا مشكلا لأوضاعها ومقررا لما تكون عليه والبعض من الحكام يسعون إلى مجاراة الرعية، وإيهامهم

بالاستجابة لتطلعاتهم حتى يخلو لهم الجو للانفراد بالجاه والنفوذ (مبارك، ٢٠٠٤: ٢٢٢). "إن ممارسة السلطة تعتبر من طرف ابن خلدون مصدرا من المصادر الأساسية للترف...وهكذا يمكن لرجل يمتلك الجاه أن يحصل في فترة وجيزة على ثروة هائلة"(الشدادي، ٢٠٠٠: ٢٠).وبالنظر إلى هذه الانحرافات التي تحصل في سياسات بعض الملوك - الذين قد يستأثرون بالمُتع ويتقلبون في النعيم، بينما تغرق الرعية في البؤس والمعاناة- يدعو ابن خلدون إلى الالتزام بقواعد الشريعة منهجا وتطبيقا باعتبارها الضامنة لتصريف شؤون الناس بالحق وسياستهم بالعدل باعتباره أساس دوام الملك، فإذا الملك ضروريا لاستمرار الاجتماع الإنساني، فإن العدل أكثر ضرورة لدوام الملك (الوافي، ٢٢٢: ١٩٨٤).

٢- الجماعة أو العصبية: يرى ابن خلدون أن العصبية لازمة ضرورية من لوازم الملك القوي، بل هي أهم أسس قيام الدولة، تقوى بقوتها وتضعف بل وتنهار بأفول نجمها وكل سلطان ليس له عصبية تشد عضده يعد ملكه ناقصا، لذلك انفردت العصبية بعناية خاصة في التنظير الخلدوني، الذي جاء فيه أن: "من قصرت به عصبيته عن بعضها، مثل حماية الثغور، أو جباية الأموال، أو بعث البعوث، فهو مُلك ناقص لم تتم حقيقته".

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما: فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال، والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين.(تاريخ ابن خلدون، ج١، ١٨٧٩).

وقد جعل ابن خلدون العصبية نموذجاً تفسيرياً في دراسة الممالك وتبدل الدول وتغير النظم السياسية، وعلاقة ذلك بمفهوم العمران البشري، وتطور المجتمع وأحوال المعيشة والاقتصاد، وقد أولى ابن خلدون عناية خاصة لظاهرة العصبية؛ لأنه قرأ مفردات الواقع العربي من خلال معايشته له، واهتدى من خلال ملاحظاته واستقراءاته إلى أن العصبية هي قوة الملك وجنده الذي يوفر له الحماية والمنعة، ويجب أن تكون عصبية الملك أقوى العصبيات جميعا وأقدرها على فرض سلطان الملك على الكافة، ويعد تقهقر صولة العصبية إمارة التغيير، لأن العصبية إذا أدركها الوهن ضعفت عن حماية الملك، وجعلته قبلة الطامعين من العصبيات الأخرى، التي ما فتئت تتحين الفرص للانقضاض على الملك.وتأسيسا عليه فإن "العصبية تؤدي إلى المنعة والغلبة، والعصبية تسمو إلى الرياسة، والرياسة تبعث على التطلع إلى الملك، ومن ثم فإن الملك لا يقوم أصلا بغير العصبية، ويظل قويا بقوتها ويضعف بضعفها". (الشعكة، ١٩٨٨: ٣٥).

٣- الاقتران بين الاستبصار الإيماني وفقه الواقع الاجتماعي:

ويكون بالجمع بين الرؤية الفكرية المستقاة من الفكرة الدينية، وبين الأدوات المتوفرة قصد تنزيل هذه الأفكار على الواقع بعد قراءته بتأني ووعي وفهم دقيق، وبذلك انتقل من الفكرة إلى العمل والتجسيد، وتتحول الرؤية النظرية إلى التطبيق العملي، وبذلك يتحقق فعل التغيير في المجتمع.فبالعصبية، مع الوازع و الشرع- أي القانون والدين ورجالات السلطان وجنده، تقوم الدولة وبدونها

تنحل وتتحلل مقوماتها وتنتهي كينونتها من حيث هي أداة قمع وردع وتنظيم وقيادة(مبارك، ٢٠٠٤: ٢٢٠-٢٢١)... ذلك أن الفكرة الدينية تحتاج إلى حماية ولن تكفل ذلك سوى قوة العصبية،"ومبرر ابن خلدون هوان القوم إذا أدركوا واقعهم بفضل هذه الفكرة ساروا تلقائيا للتمسك بها والدفاع عنه وتأمين الحياة والحماية لها"...فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه".(الجابري، ١٩٨٤: ١١٧).

فالتغيير الاجتماعي محكوم في التصور الخلدوني بدعامتين بارزتين هما:

• النظام القيمي(الدين).

•والنظام الاجتماعي(العصبية).

والإنسان باعتباره عصب عملية التغيير يتأرجح سلوكه تساميا و تدهورا،بتأرجح هذين النظامين قوة وضعفا.

٤. تدهور الحضارة عند ابن خلدون (المشهداني ، ٢٠٠٩).

يعتبر كتاب المقدمة لابن خلدون من أوائل المصادر التي استعرضت القواعد العامة لشرح قراءة التاريخ. فهو بحث تاريخي نقدي ، يختلف فيه مؤلفه تجاه من سبقه من المؤرخين الذين جمعوا الروايات والحوادث والأخبار دونما منهج خاص يفرق ما بين الأسطوري والحقيقي منها، فكانت الأحداث تروى على طبيعتها، وتنقل من دون تمحيص أو تدقيق. يقول ابن خلدون: "إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع ولم يراعوها فالتحقيق قليل. وقد كان أغلب المؤرخين يتباهون بعلمهم في حشد الروايات وتوثيق السند دون القيام بنقد الأخبار على أساس طبائع العمران. ويقول الطبري:" إنما أدينا ذلك حسب ما أدي إلينا". فلئن كان فضل المؤرخين القدامى في أمانة النقل وغزارة المادة التي ملئوا بها كتبهم ، فإن ابن خلدون قد أضاف إلى ذلك فضلا آخر في ناحيتين ، الأولى في تفريقه بين التاريخ وفلسفته ، والثانية في إلحاحه وسؤاله الدءوب عن العلل والأسباب للحوادث والوقائع ومحاولة الوصول إلى إجابات منطقية. وكانت المسألة الأساسية التي استحوذت على فكر ابن خلدون: كيف تنشأ الدول ؟ وما عوامل ازدهارها ؟ وما أسباب هرمها؟

اختلف الدارسون من القدامى والمحدثين في تفسير تدهور الحضارة العربية الإسلامية. فابن خلدون يرى أن الحضارة عموما لها عمر يبدأ بالمولد ثم الفتوه ثم الشيخوخة والموت. ويضيف أن ازدهار الحضارة مرتبط بازدهار العمران وأن عدوها الحقيقي يكمن في حياة البذخ والترف المؤدي إلى الانهيار. قال تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) (آل عمران: ١٤٠).

من بين القضايا ذات الصلة بنهوض وتدهور الحضارة تلك التي تتمثل بالعلاقة بين الحياة الحضارية وحياة الصحراء. وتدرس مقدمة ابن خلدون تأثير كل من حياتين على الطبيعة الإنسانية. وقد قدم ابن خلدون مقوما مميزا لهذه العلاقة فهو يقول أن: " إن البدو يقيدون أنفسهم بالحصول على الحاجات الأساسية في حياتهم و لا يستطيعون تجاوزها ، فيما الشعوب الحضرية تهتم بالحصول على وسائل الراحة والرفاهية في محيطها وعاداتها. بالتأكيد أن الضروريات الأساسية تسبق في

الأهمية وسائل الراحة والرفاهية. وبالتالي فإن البدو هم الأساس ويسبقون المدن والشعوب الحضرية.

الإنسان يسعى أولا للضروريات الأساسية ولا يبدأ البحث عن وسائل الراحة و الرفاهية إلا بعد أن يحل على الضروريات الأساسية.ولهذا نجد أن التحول للحياة الحضرية هو الهدف الذي يطمح إليه البدو هذه هي الحال مع كل القبائل البدوية. أما الشعوب الحضرية ليست لديها الرغبة في الحياة الصحراوية ما لم تكن مدفوعة بضرورة طارئة أو عدم مقدرتها على التعايش مع شركائها في حياة المدينة. كما إن الشعوب الحضرية أكثر اهتماما لكل أنواع المتع وهي معتادة على الرفاهية والنجاح في الأشغال الدنيوية والتلذذ بالمتع الدنيوية. ولهذا نجد نفوسها مشبوه بكل الصفات المكروهة والشريرة. وكلما كانت هذه الصفات أكثر في نفوسهم كلما أصبحت المسالك والوسائل الطيبة أبعد عنهم. وبالفعل فأنهم يخسرون أي إحساس بضبط النفس ولاحقا يتضح أن الحياة الحضرية تمثل المرحلة الأخيرة من الحضارة والنقطة التي تبدأ منها سيره نحو السقوط.

خلاصة القول إن الحضارة عند ابن خلدون طور طبيعي فالتمدن غاية البداوة ولكن البدو عندما يتطورون في أساليب العيش ويتقدمون في الصنائع فأنهم ينهون إلى الفناء ؛ لإن الحضارة تحمل في طياتها بذور الفساد ، فتهرم الدولة وتسقط ، والهرم عند ابن خلدون مسألة طبيعية في الدولة إذ يقول: وهو من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواءها و لا ارتفاعها لندها أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل وهكذا تفسح الدولة المنهارة المجال لقيام دولة جديدة تمر بنفس الأطوار والمراحل.

وينظر البعض إلى وصول عناصر غير عربية من الفرس وغيرهم إلى السلطة باعتباره عاملاً من العوامل السياسية التي أسهمت في الانحطاط، والسبب في رأيهم أن أمثال هؤلاء من الفرس المماليك والأتراك وغيرهم هم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه، مع أنهم يقرءون - أي الخلفاء- الذين استخدموا تلك العناصر في الحكم قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون) (آل عمران: ١١٨).

وقد أكد الله تعالى في كتابه العزيز أن التغيير نحو الأحسن لا يحصل إذا لم يكن العدل لدى القائمين بالأمر سائدا تجاه الرعية. قال تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (الرعد: ١١).

ولكي تتضح فكرة ابن خلدون عن التغير الاجتماعي لا بد من التطرق إلى آراءه في نشوء الدولة وانهيارها، كمثال عملي على كيفية حدوث التغير الاجتماعي وميكانيزماته.

- **أسباب نشوء الدولة من منظور ابن خلدون**

صاغ ابن خلدون نظريته في الدولة حيث تحدث فيها عن طبيعة الدولةومؤسساتها، وبين أهميتها، وناقش الأسس التي ترتكز عليها، وبحث أسباب نشوئها وازدهارها، وبين القواعد التي تحكم تطورها وصيرورتها، وأبرز العوامل التي تؤدي إلى اضمحلالها وزوالها.

فما هي الأسباب التي تؤدي إلى نشوء الدولة من منظور ابن خلدون؟

يرى ابن خلدون أن هناك سببين رئيسين لنشوء الدولة هما: (عبد الكريم، ٢٠٠٩: ١٢٥)

السبب الأول: هو حفظ أمن المجتمع ليتمكن الناس من العيش والإنتاج وبالتالي الاستمرار في البقاء، فلكي يستمر الإنسان في بقائه، لا بد له من أن يحصل قوته ولما كان كل فرد عاجزاً عن تحصيل جميع حاجاته المادية الضرورية لبقائه بمفرده، فقد اقتضى ذلك اجتماع الناس وتعاونهم، والتعاون استدعى تقسيم الأعمال فيما بينهم، وذلك لتنوع الأدوات الضرورية والحاجات المادية المختلفة التي يحتاجها المجتمع.

وأشار ابن خلدون لذلك بقوله: فالناس إنما يجتمعون للتعاون في تحصيل المعاش ابتداء بما هو ضروري وبسيط فمنهم من يستعمل الفلح ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان، ومن هؤلاء من ينتحل الصنائع، ومنهم من ينتحل التجارة، ولكن للأفراد مصالح متناقضة فيما بينهم، ولذلك لابد من أداة ضبط تحمي مصالح الناس، وتقيهم شر الصراع، وهنا يأتي دور الدولة التي تقود المجتمع وتوازن بين مصالح الناس المتناقضة وتحقق الاستقرار و السلام بين أفراده.

السبب الثاني لنشوء الدولة: هو العصبية وقد عرف هذا المفهوم تعاريف مختلفة من قبل مفكرين كثر، سعى كل منهم إلى تأويله بطريقة مختلفة عن الآخر، ومفهوم العصبية على الأغلب يعني العلاقة بين ذوي القربى. ذلك أن صلة الرحم أمر طبيعي حيث أشار ابن خلدون لمعنى العصبية قائلاً: (الخضري، ١٩٨٨: ٢٣٥)

(في البشر إلا في الأقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم الهلاك، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه، ويود أن يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب و المهالك نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام، كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بوضوحها وإذا بعد النسب بعض الشيء، فربما ينفي منها شهره فتحمل على النصرة لذوي نسبه الأمر المشهود.(

ويتبين مما تقدم أن العصبية تتولد من القرابة في الأساس وهي تستند إلى وحدة النسب بالدرجة الأولى غير أن هذه القرابة من الأمور التي تحتاج إلى نظر من عدة وجوه، فللقرابة مراتب متفاوتة داخل أهل القبيلة الواحدة ولكن مما لاشك فيه أن القرابة التي تربط بين إخوة من أب واحد تكون أقوى من التي تربط بين أهل البيت الواحد، وبالتالي فقوة العصبية المنبثقة من القرابة تختلف لاختلاف درجة هذه القرابة، وهكذا نلاحظ أن الالتحام المنبثق من وحدة النسب الخاص يكون أقوى من الالتحام المتولد من وحدة القرابة، وقد حاول ابن خلدون أن يوفق بين العصبية بمعناها في النسب العام الجاهلية كشعور مكروه وسلوك يجب أن يدان أنها بهذا المفهوم تنبع من شعور الكبرياء والغرور والرغبة في الانتماء إلى قبيلة قوية ونبيلة. ولقد رأى ابن خلدون أن مشاعر التضامن من داخل العصبية لها تبريرها إذا عبرت عن نفسها لأسباب دينية أو دنيوية على أن تكون مشروعة.

لقد هاجم المساندة لمجرد الانتماء لنفس العصبية سواء كانت القضية عادلة أو غير عادلة. ويبدو إذا أن المعيار الذي استخدمه ابن خلدون للحكم على العصبية هو غرض العمل ولكن ما يهم هو الدور السياسي للعصبية. السبب الثاني من أسباب قيام الدولة كما يرى ابن خلدون ولكي يتسنى لنا توضيح دور العصبية في قيام الدولة ونشوئها لابد لنا من أن نرجع إلى تقسيم ابن خلدون للاجتماع البشري والذي يقسمه إلى قسمين هما:

ـ المجتمع البدوي:

وهو الأصل في كل أمة وهو السابق على الحضارة والبداوة هم الذين يتصفون بالشجاعة والخير، وهم أقرب إلى الفطرة السليمة التي لم تفسدها بعد مظاهر الترف ويصفهم ابن خلدون بقوله: أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلاح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن.

ـ المجتمع الحضري:

وهو المجتمع الذي يقطن أهله المدن وهم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم ومنهم من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من يعمل في التجارة ويشهد هذا المجتمع تطوراً في كل وسائل الترف. ويرى ابن خلدون أن البدو هم أصل الحضر وأن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة العصبية فهي القوة المحركة للدولة، وهي أساس قيام الدولة، فالعصبية ضرورية في طور تأسيس الدولة، لكنها تعرقل استقرار نشاط الدولة إذا تعددت العصبيات ضمن الدولة الواحدة أو إذا نازع الملك أهل عصبيته فهنا يلجأ إلى جدع الأنوف حتى يستقر له الملك.

نظر ابن خلدون للدولة على أنها كائن حي يولد وينمو ثم يهرم ويفنى وللدولة عمر مثلها مثل الكائن الحي وقدر ابن خلدون عمر الدولة بمائة وعشرين سنة وهي تتكون من ثلاثة أجيال ويقول ابن خلدون في ذلك:

أن الدولة في الغالب لا تعدو ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر المتوسط فيكون أربعين.

فما هي هذه الأجيال الثلاثة التي تشكل عمرالدولة؟ (محمود، ١٩٩٠).

الجيل الأول: وهو جيل مترع بالعصبية والشجاعة يعيش حياة بدوية فلا تزال صورة العصبية محفوظة فيهم وحدهم هو الجيل الذي يتحقق على يديه الملك، والذي يؤسس الجيل الثاني للدولة فينتقل من الحياة البدوية الخشنة أومن العمران البدوي إلى الحياة الحضر.

والجيل الثاني: تحول حالهم بالملك والترفه من البداوة بقوله وفي هذا الجيل تضعف العصبية نتيجة الترف، وتقل الشجاعة وترق الطباع، وتحل القيمة الحضرية محل القيم البدوية.

وأما الجيل الثالث: فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ الترف وتسقط العصبية وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة وركوب الخيل وحسن الثقافة.

أسباب انحلال الدولة

يشرح ابن خلدون أسباب انحلال الدولة بقوله: (أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك في الأحوال. والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين)(ابن خلدون، ١٣٩: ١٩٩٩).

ويفسر ابن خلدون كيفية تسرب الخلل للدولة قائلا: (اعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية وأنه لابد من عصبية كبرى جامعة للعصائب وهي عصبية صاحب الدولة وهي العصبية الكبرى فتحل عروتها وتضعف شكيمتها وينفرد صاحب الدولة عن العشير والأنصار الطبيعية، ويحس بذلك أهل العصائب الأخرى ويتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبيعيا، فيهلكهم صاحب الدولة ويتبعهم واحد بعد واحد ويقلد الآخر من أهل الدولة في ذلك الأول ما يكون نزل بهم مهلكة الترف الذي قدمناه فيتولى عليهم الهلاك والترف والقتل حتى يخرجوا عن صيغة تلك العصبية، ويحتاج صاحب الدولة إلى الزيادة في أعطياتهم حتى يسد خللهم ويزيح عللهم وكثرة نفقاتهم تنقص عدد الحامية فتسقط الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول أو من تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله بالفناء الذي كتبه على خلقه)(ابن خلدون، ١٩٩٩: ١٦٤) ومن علامات اقتراب نهاية الدولة تجزؤها واستقلال أصحاب الولايات بولاياتهم وتبدأ بالانفصال ولايات الأطراف حيث تكون قبضة الدولة عليها أضعف من الولايات الأقرب لمركز الدولة، وعندما تنحسر سلطة الدولة عليها يستقل كل والي بولايته فيشكل دولة قائمة بذاتها مع عصبيته وعشيرته، والأغلب أن تجهز على الدولة الهرمة عادة دوله جديدة مجاورة أو قبيلة متحمسة ذات عصبية وشوكة تكون في طور الفتوة والقوة، وإذا لم توجد هذه الدولة أو القبيلة تعيش الدولة المتداعية أكثر من عمرها الطبيعي لتأخر وصول من ينفذ حكم القدر فيها.

لقد رأى ابن خلدون أن مصير الدول محكوم بقوانين التاريخ ذات الطبيعة الحتمية.وربما كان ذلك نتيجة لطبيعة عصره الذي كثرت فيه الفتن والانقسامات والتنافر وأعمار الدول التي عاصرها كان قصيرا ولكن ذلك لا يقلل من شأن نظريته في الدولة؛ لأن الفلسفة لا تكون حقيقية إلا إذا كانت بنت زمانها أي نابعة في تصوراتها الأساسية التي تستخدمها في طرح مشكلاتها وحلها من العصر الذي وجدت فيه، مع الاعتراف في الوقت نفسه بأن عنصر الحقيقة في الفلسفة يضمن للفلسفة الأصيلة ضربا من الحياة المستمرة في الأزمنة التالية للعصر الذي وجدت فيه(عقاق، ١٩٩٧)... ومن هذا المنظور نستطيع أن نجزم بأن ابن خلدون كان بحق مرآة لعصره ومنارة للباحثين من بعده. إذا مسيرة التاريخ في رأي ابن خلدون ما هي إلا سلسلة من الدول تسير كل منها في حلقات متتابعة تتشابه هذه الدول في مراحلها المختلفة وتقوم كل منها على أنقاض الأخرى (سنة الله في الدول إلى أن يأتي ما قدر الله في الفناء من خلقه وكل شيء هالك إلا وجهه)(ابن خلدون، ١٩٩٩ : ١٦٤)...

وعندما شرع ابن خلدون في كتابه التاريخ ،كان لديه سؤال جوهري شكل فيما بعد أساس بحثه الاجتماعي وهو: كيف تقوم الدولة وكيف تنهار ؟ وكان ابن

خلدون يعتقد بأن للدولة دورة حياة تشبه دورة حياة الإنسان ،وقد أقام نظريته هذه على أساس هذه الآية (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا و شيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) (الروم: ٥٤).وبناءا على هذه الآية وضع ابن خلدون لقيام الدولة وانهيارها أطوار: طور الظفر والاستيلاء على الحكم، طور الاستبداد والانفراد بالسلطة والتنكر للعصبة ،طور الفراغ لتحصيل ثمرات الملك وفيه تسود الراحة والطمأنينة، طور الهرم والانقراض بسبب الإسراف والتبذير.وعلى الرغم من أنه وضع نظريته هذه بناءا على مشاهداته لدول المغرب العربي إلا أنها أثبتت صدقها على كثير من دول العالم.

وهنا نتساءل: ماذا يعني بداية موت وانهيار الدول والأمم و الحضارات ؟

قبل كل شيء يجب ملاحظة إن موت الدول في بعض الحالات يكون علامة لحياه جديدة أكبر. نقصد تحديداً عندما تذوب الدولة في كيان وحدوي أكبر شأناً وأكثر قدرة ومكانة مصير ومستقبل الدولة في أوروبا في ظل تسارع الخطوات نحو قيام كيان أوروبي موحد كبير .وبالمثل، لو أن الدول العربية الحالية أو بعضها ذاب في كيان عربي أكبر، لن يكون هذا انهيارا أو موتا للدولة بالمعنى المقصود، لكنه سيكون بالعكس ميلادا جديدا للأمة. موت الأمم قد يعني موتها بالمعنى الحرفي المباشر، أي اختفاءها المادي من الوجود .وفي تاريخ البشرية نماذج كثيرة لأمم وحضارات قامت وازدهرت ثم اختفت من الوجود .لكن المثال الأبرز الذي يرد فورا إلى الذهن هنا هو دولة العرب والمسلمين في الأندلس التي عاشت لثمانية قرون كاملة متصلة ثم اختفت من الوجود غير إن موت أو انهيار الدول والأمم ينصرف أيضا إلى معنى آخر غير معنى الاختفاء المادي الفعلي .الأمم قد توجد على قيد الحياة، لكن بلا وزن ولا تأثير ولا دور فاعل في عالم التقدم والمكانة بكل معانيها وسط الأمم الأخرى ومقارنة بها.

مستقبل الدولة في الفكر الخلدوني.

جاء في نهاية الباب الثالث الخاص بالدولة وأطوارها ما معناه " أن التطلع إلى معرفة مستقبل الدول، من جانب الحكام والمحكومين على حد سواء، يزيد حدة وإلحاحا في نهاية كل دور من أدوار الدولة، عندما تهرم وتضعف عصبيتها (قوتها)، فيقل أنصارها ويكثر أعداؤها، وفي نفس الوقت عندما يستبحر العمران (التقدم الحضاري) وتتعدد الصنائع والعلوم (التكنولوجيا والمعرفة). فتتداخل، لمدة معلومة، مميزات البداوة (أساس الدولة المستحدثة)، ومميزات الحضارة (معالم الدولة القائمة أو الحديثة على زمن ابن خلدون).

يبدو أن هذه المقولة تنطبق حرفيا على المشهد التغييري العربي. فهذا يدل على أن مجريات الأمور في المشهد المصري والسوري والتونسي التي نحاول قراءتها وتفسيرها، على تعقدها وغموضها بالنظر المباشر، إنما هي من طبائع أطوار ومراحل تطور الدول والمجتمعات عبر التاريخ، طبقا لرؤية ابن خلدون.

لقد وضع ابن خلدون الأساس الذي يفسر الصراع، بل ويحدد نتيجته أيضا حتى بعد أكثر من ٦٠٠ سنة!. يتعرض إبن خلدون في الباب الثاني من المقدمة إلى أن تأسيس الدولة لا يكون إلا بالعصبية (أجلى مظاهرها

القوة العسكرية) وهي قوة طبيعية. فهي إذن الوسيلة الضرورية، أما الأصل فهو شأن آخر: "إن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما عن نبوة أو دعوة حق". هنا يميز إبن خلدون بين الوسيلة والأصل في قيام الدولة،الوسيلة هي القوة العسكرية (بتعبيرنا العصري) والأصل هو الدين. لا يكتفي إبن خلدون بهذا، بل يبحث في العلاقة الجدلية بين الأمرين فيقول من جهة: "إن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم"، ومن جهة ثانية: "إن الدعوة الدينية تزيد العصبية قوة على قوة العصبية". يقول المفكر عبد الله العروي بعد أن يبين الطبيعة الجدلية بين "العصبية" و"الدين": "إن ما يتغير، أو يُحوَّل في التعبير الخلدوني، هو ظهور مسلك آخر إلى العلم وبروز قواعد تهذيبية وتنظيمية جديدة، تخالف وأحيانا تعارض الأولى دون أن تنفيها أبدا نفيا تاما." ما يعنيه العروي هو أن هناك اتجاها ثالثا يقع بعد العصبية والدين وهو العلم أو بالتعبير الشائع العلمانية أو الليبرالية، وهذا الاتجاه قد يخالف أو يعارض البداوة ولكن دون أن ينفيها تماما. يوضح العروي هذا التحول من أقوال ابن خلدون كالآتي: "على قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة إذ أمور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة من توابع المُلك". (صبحي ، ٢٠٠٨: ١٥٥).

الخاتمة و الاستنتاجات

من خلال ما تقدم من عرض وتحليل لموضوع التغير الاجتماعي ونظرية الدولة عند ابن خلدون نخلص إلى الاستنتاجات التالية مرتبة حسب أهداف الدراسة وأسئلتها:

١- فيما يتعلق بالتغير الاجتماعي وقوانينه واتجاهاته ومرتكزاته.

- يبين ابن خلدون إن ظواهر الاجتماع لا تسير مصادفة إنما تخضع لقوانين اجتماعية ، وينظر ابن خلدون إلى المجتمع الإنساني نظره تحليلية ويحاول أن يتتبع المجتمع بالدراسة والتحليل من نشأته حتى فساده وتردده بين الضعف والقوة، والنهوض والسقوط، ويستقصي من خلال ذلك أحوال المجتمع وعناصر تكونه وتنظيمه من الفرد والجماعة إلى السلطان والدولة وما تقتضيه سلامة المجتمع وما يؤذن بفساده وانحلاله.

- ويرى أن التاريخ البشري يسير وفق خطة معينة فحوادثه مرتبطة بعضها البعض وأن المجتمع البشري شأنه شأن الفرد الذي يمر بمراحل منذ ولادته وحتى وفاته،وكذلك يحدث للدول وأن مسيرة المجتمع تغيرية دائرية تبدأ وتنتهي في النقطة التي كانت قد بدأت منها وأن هذه الظاهرة (دورة المجتمع) مستقلة عن الإرادة الإنسانية وقد أسهب ابن خلدون في تحديد أسباب التعاقب المنظم لدورة الظواهر العمرانية (الاجتماعية) ، ويرى أن النظم والظواهر العمرانية تتغير في إثناء تطورها.

- يرى ابن خلدون أن أحوال الأمم والأجيال لا يقع فيها انتقال كثير ولا تغير كبير في بعض العهود، ولكن في عهود أخرى تنقلب تلك الأحوال انقلابا كليا وتتبدل بالجملة.

- يرد ابن خلدون تطور الاجتماع البشري إلى أساس اقتصادي فالمجتمعات تدرجت من البساطة إلى التعقيد حسب الطريقة التي كانت تستغل بها ثورات البيئة من البداوة إلى الرعي إلى الصناعة.

- أولى ابن خلدون الناحية التطورية للمجتمع عناية كبيرة والعوامل التي تؤثر فيه، وقد توصل في دراسته للمجتمع إلى قانونه في التطور الاجتماعي (قانون الأطوار الثلاثة لأجيال الثلاثة) وفيه يتجلى بوضوح ماهية التغير الاجتماعي عند ابن خلدون، وهذه الأجيال هي: طور النشأة والتكوين، طور النضج والاكتمال. طور الهرم والشيخوخة.

- فيما يتعلق بمرتكزات المنهج التغييري في الفكر الخلدوني:

يقوم منهج ابن خلدون التغييري على المرتكزات التالية:

الاستبصار الإيماني و الجماعة أو العصبية، والاقتران بين الاستبصار الإيماني وفقه الواقع الاجتماعي، وتدهور الحضارة.

- التغيير الاجتماعي محكوم في التصور الخلدوني بدعامتين بارزتين هما:

النظام القيمي (الدين) والنظام الاجتماعي(العصبية).

والإنسان باعتباره عصب عملية التغيير يتأرجح سلوكه تساميا و تدهورا، بتأرجح هذين النظامين قوة وضعفا.

٢- فيما يتعلق بالدولة:

٣- يرى ابن خلدون أن هناك سببين رئيسين لنشوء الدولة هما: السبب الأول: هو حفظ أمن المجتمع ليتمكن الناس من العيش والإنتاج وبالتالي الاستمرار في البقاء، فلكي يستمر الإنسان في بقائه، لا بد له من أن يحصل قوته ولما كان كل فرد عاجزاً عن تحصيل جميع حاجاته المادية الضرورية لبقائه بمفرده، فقد اقتضى ذلك اجتماع الناس وتعاونهم، والتعاون استدعى تقسيم الأعمال فيما بينهم، وذلك لتنوع الأدوات الضرورية والحاجات المادية المختلفة التي يحتاجها المجتمع.

السبب الثاني لنشوء الدولة: هو العصبية وتبين مما تقدم أن العصبية تتولد من القرابة في الأساس وهي تستند إلى وحدة النسب بالدرجة الأولى غير أن هذه القرابة من الأمور التي تحتاج إلى نظر من عدة وجوه، فللقرابة مراتب متفاوتة داخل أهل القبيلة الواحدة ولكن مما لاشك فيه أن القرابة التي تربط بين إخوة من أب واحد تكون أقوى من التي تربط بين أهل البيت الواحد، وبالتالي فقوة العصبية المنبثقة من القرابة تختلف لاختلاف درجة هذه القرابة، وهكذا نلاحظ أن الالتحام المنبثق من وحدة النسب الخاص يكون أقوى من الالتحام المتولد من وحدة القرابة، وقد حاول ابن خلدون أن يوفق بين العصبية بمعناها في النسب العام الجاهلية كشعور مكروه وسلوك يجب أن يدان. إنها بهذا المفهوم تنبع من شعور الكبرياء والغرور والرغبة في الانتماء إلى قبيلة قوية ونبيلة. ولقد رأى ابن خلدون أن مشاعر التضامن من داخل العصبية لها تبريرها إذا عبرت عن نفسها لأسباب دينية أو دنيوية على أن تكون مشروعة.

- لكي يتسنى لنا توضيح دور العصبية في قيام الدولة ونشوئها لابد لنا من أن نرجع إلى تقسيم ابن خلدون للاجتماع البشري والذي يقسمه إلى قسمين هما:

- المجتمع البدوي:

وهو الأصل في كل أمة وهو السابق على الحضارة والبداوة هم الذين يتصفون بالشجاعة والخير وهم أقرب إلى الفطرة السليمة التي لم تفسدها بعد مظاهر الترف

ويصفهم ابن خلدون بقوله: إن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلاح والقيام على الأنعام وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن.

ـ المجتمع الحضري: وهو المجتمع الذي يقطن أهله المدن وهم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم ومنهم من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من يعمل في التجارة ويشهد هذا المجتمع تطوراً في كل وسائل الترف ويرى ابن خلدون أن البدو هم أصل الحضر.

- نظر ابن خلدون للدولة على أنها كائن حي يولد وينمو ثم يهرم ويفنى وللدولة عمر مثلها مثل الكائن الحي وقدر ابن خلدون عمر الدولة بمائة وعشرين سنة وهي تتكون من ثلاثة أجيال ويقول ابن خلدون في ذلك:

إن الدولة في الغالب لا تعدو ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر المتوسط فيكون أربعين.

- كان ابن خلدون يعتقد بأن للدولة دورة حياة تشبه دورة حياة الإنسان، ووضع لقيام الدولة وانهيارها أطوار: طور الظفر والاستيلاء على الحكم، طور الاستبداد والانفراد بالسلطة والتنكر للعصبة، طور الفراغ لتحصيل ثمرات الملك وفيه تسود الراحة والطمأنينة، طور الهرم والانقراض بسبب الإسراف والتبذير.

بقي أن نقول أنه عندما شرع ابن خلدون في كتابه التاريخ ،كان لديه سؤال جوهري شكّل فيما بعد أساس بحثه الاجتماعي وهو: كيف تقوم الدولة وكيف تنهار ؟ وكان ابن خلدون يعتقد بأن للدولة دورة حياة تشبه دورة حياة الإنسان، وفي هذا إشارة إلى آلية تغير المجتمع.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- **أبو نائل، عبد الفتاح**، " *الجذور التاريخية للتبعية العربية* "، مجلة آفاق، العدد ٤، ١٩٩٤.
- **ابن خلدون، عبد الرحمن**: *مقدمة موسوعة العلامة ابن خلدون*، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٩٩.
- **تاريخ ابن خلدون** ، *المقدمة، الجزء الأول* القاهرة، دار المعارف، ١٨٧٩.
- **الجابري ، محمد عابد**.١٩٨٤، *العصبية و الدولة ، مركز دراسات الوحدة العربية* ، بيروت، ص ١١٩- ١٢٠.
- **جمعه ، نفين** ، *فلسفة التارخ عند تونبي*، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١
- **الحصري ساطع**، *دراسات عن مقدمة ابن خلدون*، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ١٩٦٦.
- **الخشاب، أحمد**،*التفكير الاجتماعي*، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٩٧.
- **الخضيري ، زينب** ، *فلسفة التارخ عند ابن خلدون* ، القاهرة، دار الثقافة للطباعة ، ١٩٨٨.
- **خمش، مجد الدين**، *علم الاجتماع*: الموضوع والمنهج، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ١٩٩٨.
- **الدقس، محمد**،*التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق*، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ١٩٨٧.

- **زين العابدين ، سهيلة.** *"نظرية الدولة عند ابن خلدون "*. المغرب، دار توبقال للنشر ، ٢٠١١.

- **شرف، سلوى** ٢٠٠٩: *التغير والتطوير*، (http://www.almualem.net/taghieer4.html).

- **الشدادي ، عبد السلام**، *ابن خلدون من منظور آخر*، ط ١ ، المغرب، دار توبقال للنشر، ٢٠٠٠.

- **الشعكة، مصطفى**، *الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون* ، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٨.

- **صبحي ، أحمد محمود** ، *فلسفة التاريخ* ، الاسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية ، ١٩٩٠.

- **عبد الكريم ، زياد** ، ٢٠٠٩. *نشوء الدولة من منظور ابن خلدون* . (www.alrrayalarabi.com)

- **عقاق ، قادة** " *هرم المدينة عند ابن خلدون* "، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠١ (www.awa_dam.org/book)

- **الفالح ، متروك هايس** ،١٩٩٦. *"ابن خلدون ونظريات الثورة: نظريته في الثورة ومفهوم العصبية"* ، دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية.

- **مبارك ، محمد** ، *مقاربات في العقل والثقافة* ، ط ١ ، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة ، ٢٠٠٤.

- **محمد، عاطف غيث**، *التغير الاجتماعي والتخطيط* ، ط٢ ، القاهرة، دار المعارف ،١٩٦٦.

- **محمود ، محمد** ،٢٠٠٨ *سقوط الدولة كما يراها ابن خلدون* www.rayah.info/browse.php

- **المشهداني ، ياسر** ،٢٠٠٩. *تدهور الحضارة عند ابن خلدون*. (www.fustat.com/i_hist/mashhadani>shtml)

- **الوافي، علي عبد الواحد**، *عبقريات ابن خلدون*، ط ٢ ، جدة، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٤.